
أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
عاتكة بنت يزيد
www.dawahmemo.com
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٤)

عاتكة بنت يزيد

* تابعية ، محارمها اثنا عشر خليفة ، راوية للحديث النبوي الشريف ، سخيّة بمالها ، محسنة إلى الفقراء ، من المعمّرات .

عَاتِكَةُ بنْتُ يَزِيْد

بَيْنَ الخِلافَةِ والخُلفاء :

* نشأتْ ؛ ونشأ معها نصيبُها من عزّةِ الجانب ، وحرمة الرأيّ ، وشرف النّفس ، ومضاء القلب ، وسناء المنزلة ، حتى كادت تكون متفرّدةَ المنزلةِ بين نساء الخلفاء على مرِّ العصور .

* حدّثوا فقالوا : إنّها كانت تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة ، كلّهم لها مُحْرم .

* أبوها : يزيدُ بنُ معاوية بن أبي سفيان .

* وأخوها : معاويةُ بن يزيد بن معاوية .

* وجدُّها : سيدنا معاويةُ بن أبي سفيان _ رضي الله عنه _ .

* وزوجُها : عبدُ الملك بن مروان .

* وأبو زوجها : مروانُ بن الحكم .

* وابنُها : يزيدُ بن عبد الملك .

* وبنو زوجها : الوليدُ ، وسليمانُ ، وهشامُ .

* وابنُ ابنها :الوليدُ بن يزيد .

* وابنُ ابن زوجها : يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك .

* وابنُ ابن زوجها أيضاً : إبراهيم بن الوليد المخلوع .

* هذه المرأة التي عاشت في عصر التَّابعين قيل عنها : إنّها أعرق النَّاس في الخلافة ، لأنَّ محارمها اثنا عشر خليفة ، وفوق هذا وذاك ، كانت من فضليات نساء عصرها علماً وأدباً وكرماً ، وجمعت من كلّ فضيلة بطرف ؛ هذه المرأة الفريدة هي : عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمويّة القرشيّة .

وأمّها : أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُريز .

وزوجها : عبدُ الملك بن مروان .

وإليها تنسب أرض عاتكة ـ بدمشق ـ خارج باب الجابية ، وكان لها بها قصر ، وفي قصرها هذا مات زوجها عبد الملك بن مروان[1] .

* وَلَدتْ عاتكةُ لعبدِ الملك ، يزيد ومروان ، ومعاوية توفي صغيراً ، وابنة اسمها أمّ كلثوم[2] .

* * *

مِنْ محدِّثاتِ الشَّام :

* لم تكن عاتكة بنت يزيد بمعزلٍ عن العلم والرِّوايةِ ، حيث إنّ عصرها عصرُ التَّابعين ، ذلك العصر الذي نشطتْ فيه علوم الحديث ،

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٣) ، وجمهرة أنساب العرب (٩١/١) ، وتاريخ الطبري (٦٦٨/٣) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧٣/٩) .

وسائر العلوم الأخرى ؛ فهي ممن تلقّى العلمَ من أفواه العلماء ممن أخذوا روايتهم عن الصَّحابة وعن أكابر التَّابعين ، وكان لها كبير الأثر في الرِّواية ، وإذا أردتَ أنْ تعرفَ مكانتها في عالم النِّساء ، فاسمع إلى أبي زرعة حيث ذكرها في المحدِّثات اللاتي تصدَّيْنَ وتصدرْنَ للحديثِ فقال : وفيمن حدَّث بالشَّام من النِّساء : عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

وعدّها ابن سُميع في طبقاته من الطبقة الثالثة .

وقال ابنُ عساكر : روى عنها مهاجر والد عمرو بن مهاجر الأنصاري[1] .

* * *

عاتِكَةُ وفُقَراءُ آل أبي سُفْيَانَ :

* ما استبقت عاتكةُ ونساء عصرها في سبيل الكرم ، إلا وكانت هي أبعد مدىً ، وأطول يداً ، وأصدق ندى ، لأنها تفقّدتْ بإحساسها مواطنَ البؤسِ لدى الفقراء ، وتتبّعتْ مواقعَ الشّقاء عندهم ، فسترتِ الجسَدَ العاري ، وجبرتْ كَسْرَ الجناح المهيض ، وأعادتِ البسمة إلى الوجوه ، ولم تكن عاتكة تجود باليسير من متاعها فحسب ، بل خرجت عن مالها كلّه لفقراء آل أبي سفيان ، فمما رواه أهل الأخبار في هذا قالوا :

(١) مهاجر الأنصاري : هو مهاجر بن أبي مسلم ، واسمه دينار الشّاميّ الأنصاريّ ، مولى أسماء بنت يزيد الأنصاري ــ رضي الله عنها ــ ، روى عن مولاته ومعاوية بن أبي سفيان ، وتبيع الحميري ، وروى عنه ابناه : عمرو ومحمد ، ومعاوية بن صالح الحضرميّ ، والوليد بن سليمان بن أبي السّائب . ذكره ابن سُميع في الطّبقة الرّابعة ، وذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب : ١٠/٣٢٣) .

لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك بن مروان من عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قال لها زوجها عبد الملك : إنَّ ابنيك قد بلغا ، فلو أشهدتِ لهما مالَكِ وميراثَكِ من أبيك ، كان لهما فضيلة على سائر إخوتهما ـ يعني لأبيهما ـ فقالت : اجمع لي شهوداً من ثقات مواليَّ ومواليك حتى أشهدهم .

فجمعهم ، ووجَّه إليها بعدة منهم ، فدخلوا عليها ، وأدخل معهم رَوْح بن زنباع(1) ـ وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها ـ ، وقال له عبد الملك :

رغِّبها فيما صنعتْ ، وحسِّنْهُ لها وأخبرها برضائي عنها .

فدخل رَوْحٌ عليها ، فتكلّم بما قاله عبد الملك تماماً ، وكانت تصغي لما يقول ، ولما فرغ من رسالته قالت له :

يا روح أتراني أخشى على ابنيَّ العَيْلة وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ . إنَّ بنيَّ في غنًى عن مالي بأبيهم وموضعهم من الخلافة ، ولكنْ أشهدُكَ ، وأشهدكم أني تصدقتُ بمالي على فقراء آل بني سفيان ، وأوقَفْتُه عليهم ، فهم إلى

(1) روحُ بنُ زنباع بن روح بن سلامة ، الأمير الشَّريف ، أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، سيِّد قومه ، وكان شبه الوزير للخليفة عبد الملك بن مروان .
روى عن أبيه ـ ولأبيه صحبة ـ وعن تميم الداريّ ، وعبادة بن الصّامت ، وروى عنه ابنه روح بن روح وآخرون .
وكان روحُ سيِّد اليمانية في الشّام ، وقائدها وخطيبها وشجاعها ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشّام ، ودهاء أهل العراق ، وفقه أهل الحجاز .
قال عنه الذهبيّ : هو صدوق . توفي روح في سنة (٨٤ هـ) ـ رحمه الله ـ (سير أعلام النبلاء : ٢٥١/٤ و ٢٥٢) ، و (الأعلام : ٣٤/٣) .

ذلك أحوج لتغيّر حالهم .

عندئذ خرج روحُ بن زنباع وقد تغير لونه ، وأقبل يجرُّ رجليه ، فلما نظر عبد الملك إليه قال : أمّا أنا فأشهد أنّك قد أقبلتَ بغيرِ الوجه الذي أدبرتَ به ، فما لك ؟! .

قال روح : يا أمير المؤمنين ، وجهتي إلى معاويةَ بنِ أبي سفيان وهو جالس في أثوابه في الدّيوان ـ يريد أنّ عاتكة كجدّها معاوية في الحزم والذّكاء ـ وأخبره الخبر ، فغضبَ عبد الملك وتوعدها .

فقال له روح : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فوالله لهذا الفعل في ابنيها خير لك من مالها . عندئذ سكن غضب عبد الملك وكفَّ عنها .

* أرأيت كيف بلغتْ عاتكة المدى في الجود ؟ وكيف كانت إجابتها التي تدلُّ على بُعْدِ نظرها في أمور الخلافة ؟ كما وتدلُّ أيضاً على أنّها بلغتِ المقامَ الأوفى في الأدب ، وكمال التّربية ، وتمام العقل .

* * *

عاتكةُ تغْضَبُ وتَرضَى :

* شغلتْ عاتكةُ بنت يزيد ـ رحمها الله ـ مساحةً كبيرة في قلب زوجها عبد الملك ، فكان يحبُّها ويجلّها ، ويحترمُ رأيها ، غير أنَّ هذا الحبُّ الشّديد كان يشوبه بعض الهجر والجفاء أحياناً ، فقد كانت عاتكة تغضب على زوجها ، وتسدُّ الأبوابَ فيما بينها ، ولكنَّ عبدَ الملك يسلك الطُرقَ التي تؤدي إلى استرضائها بالحيلة أو الاستعاضةِ بأهل الحزم والمشورة .

* ذكروا أنّها غضبتْ على عبد الملك ، وكان بينهما باب ، فأغلقته ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، وشكا ذلك إلى رجلٍ من خاصته يُدعى : عمر بن بلال الأسديّ .

فقال له عمر : ما لي عندك إنْ رضيتْ عاتكة ؟

قال عبد الملك : ما تريد يا عمر ـ وكان عمر ظريفاً ذا حيلة ـ .

وانطلق عمر إلى بابها ، وجعل يتباكى ، فخرجت إليه جواريها ، فقلن له : ما لك ؟

قال : ابناي ، لم يكن لي غيرهما ، فقَتَلَ أحدهما صاحبه ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل الآخر به .

فقلت : أنا الولي ، وقد عفوتُ .

قال : لا أعوّدُ النّاس هذه العادة .وقد رجوت أنْ ينجي الله ابني هذا على يدي مولاتكن عاتكة . فدخلن عليها ، وذكرت لها ذلك ووصفن حاله وبكاءه وجزعه ، فقالت : وكيف أصنع من الجفوة بيننا وما أظهرت له ؟

قلن لها : إذاً والله يُقتل يا مولاتي .

فلم يزلن بها حتى دعت بثيابها ، ثم خرجت نحو الباب ، فأقبلت وسلّمتْ .

فقال لها عبد الملك : أما والله لولا عمرُ بنُ بلال ما جئتِ ، وسأقتل القاتل ، وأكره أنْ أعوّدَ النّاس هذه العادة فتكثر الفوضى .

فقالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين إنَّ عمر ببابي يطلبُ العفو ؟ ولم تزلْ تتعطفه حتى أخذت برجلِهِ فقبّلتها فقال : هو لكِ ، ولم يبرحا حتى اصطلحا .

* وبرَّ عبد الملك بوعده ، وأنعم على عمر بن بلال الأسديّ ووصله وأكرمه لحسن وساطته وظرفه ، ثم اندفع عبد الملك يتمثّل بشعر كثير بن عبد الرحمن :

وإني لأرعى قـومهـا من جـلالهـا
وإنْ أظهروا غشاً نصحتُ لهم جهدي
ولو حـاربـوا قومي لكنتُ لقومهـا
صديقاً ولم أحملْ على قومها حِقْدي(١)

* * *

مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأبْقَى :

* على الرّغم من حبّ عاتكة بنت يزيد للفخر بالحسب والنّسبِ والمال ، إلا أنَّ ذلك لم يقطعْ صِلتها بالله عزَّ وجلَّ ، بل كانت تعرف وتدرك أنَّ كلَّ شيء سيزول ، وأنَّ ما عند الله سبحانه باقٍ .

* ومن الأخبار التي ترفعُ مكانة عاتكة في هذا المجال ما ذكرتِ المصادرُ أنّها استأذنت زوجها عبد الملك في أداءِ فريضة الحج ، فأذن لها وقال :

---

(١) عن الأغاني (٢/١٣٥) ، وأعلام النساء (٣/٢١٦ و ٢١٧) بتصرف يسير .
وللمزيد من مثل هذه الأخبار الطريفة ، اقرأ قصة في غيرة عاتكة في كتاب « المحاسن والمساوئ » للبيهقي (ص ٣٨٩ ـ ٣٩١) .

يا عاتكةَ ارفعي حوائجك ـ قدّمي ـ واستظهري ، فإنَّ عائشةَ بنت طلحة تحجُّ ، وإنْ أقمتِ كان أحبَّ إليَ .

فأبتْ عاتكة ورفعت حوائجها ، وجهزها بما يُرضي رغبتها وانطلقت ، فلما كانت بين مكةَ والمدينة ، أقبل رَكْب في جماعة فضَعْضَعَها وفرَّقَ جماعتها ، فقالوا : هذه عائشة بنت طلحة ، فإذا ذلك الموكب مع جارية من جواريها ؛ ثم جاء ركبٌ مثله ، فسألت فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاء موكب أعظم من ذلك في ثلاثمئة راحلة ، فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى[1] .

* * *

مِنْ أَخْبارِها مَعَ عَبْدِ المَلِكِ :

* كان مصعبُ بنُ الزُّبير بالعراق قد أعيا عبد الملك بن مروان وأجهده ، وفرَّقَ جيوشه ، وأنزلَ بهم الهزائم ، فلما طال عليه ذلك اشتدّ غمه ، فأمر النّاس فاستعدوا للمسير إلى العراق ، فلما أجمع على المسير ، قالت له عاتكة : يا أمير المؤمنين ، وجِّهِ الجنودَ وأقمْ فليس الرأي أنْ يباشرَ الخليفة الحرب بنفسه ، وألحّتْ عليه في البقاء . فقال : لو وجهتُ إليه أهل الشّام كلّهم ، وعلم مصعب أنّي لستُ معهم لهلك الجيش كلّه ، ثم تمثل قائلاً :

ومستخــبرٍ عنـا يـريـدُ بنـا الرّدى
ومستخـبراتٍ والعيـونُ سـواكبُ

---

(١) انظر تاريخ دمشق (ص ٢٠٥ و ٢٠٦) .

* ولما عزم على الخروج لمحاربة مصعب ، تعلّقت به عاتكة ، فبكتْ ، وبكى جواريها معها ، فلمّا علا الصّوت رجع إليها فقال : قَاتَلَ الله كثيِّر عزّة ، كأنّه رأى موقفنا هذا حين قال :

إذا مــا أرادَ الغَــزْوَ لم تثـنِ همّــه
خَصَـــانٌ عليها نظْــم درٍّ يَزِينُهــا
نَهتــهُ فـلمّـــا لم ترَ النّهيَ عاقَه
بكتْ فبكـى ممـا عَرَاهَـا قطينُهــا[1]

ثم عزم عليها أنْ تقصُرَ ، فأقصرت ، ثم مضى وخرج لقصده[2] .

* قال أبو الحسن عزّ الدّين بن الأثير في « الكامل » :

ولما قُتل مصعب ، بعث عبد الملك رأسه إلى الكوفة ، أو حمله معه إليها ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر ، فلما رآه وقد قطع السّيف أنفه قال : رحمكَ الله ! أمَا والله لقد كنتَ مِنْ أحسنِهم خلقاً ، وأشدّهم بأساً ، وأسخاهم نفساً ، ثم سيّره إلى الشّام ، فأخذته عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وهي أمّ يزيد بن عبد الملك ، فغسلته ودفنته وقالت : أمَا رضيتم بما صنعتُم حتى تطوفوا به في المدن ؛ هذا بغي ! وكان مقتل مصعب سنة (٧١ هـ) رحمه الله[3] .

---

(١) « القطين » : الخدم والإماء والحشم والأتباع من أهل الدار .

(٢) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها : الأمالي (١٣/١) ، وتاريخ دمشق (ص ٢٠٣ و ٢٠٤) ، والأغاني (١٣٤/٨) ، ووفيات الأعيان (١٠٨/٤) ، والكامل (٣٢٤/٤) ، والبداية والنهاية (٢٦٢/٩) وغيرها من المصادر وكتب التاريخ والأدب .

(٣) الكامل في التاريخ (٣٣٢/٤ و ٣٣٣) .

* ومن أخبار عاتكة مع عبد الملك ما رواه الإمام الزّهريّ قال : دعاني عبد الملك في قُرّاء من قرّاء أهل دمشق ، فدخلنا عليه ، وإذا امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية جالسة ، وابن لها صغير مريض ، فأخذنا ندعو الله عزّ وجلّ ، وأخذ هو يدعو فقال : بحقّ مكاني الذي وضعتني ، فلم يبرحْ حتى مات .

قال الزّهريّ : وكان هو أشدّ جزعاً من أمّ الصّبيّ ـ عاتكة ـ فلمّا مات صَبَرَ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أنت كنتَ أشدَّ جزعاً منها ، وهي السّاعة أشدّ جزعاً منك . فقال : إنّا نجزع من الأمر ما لم يقعْ ، فإذا وقع صبرنا[1] .

* وعاشت عاتكة معظم الخلافة الأموية ، إذ كانت من النّساء المعمّرات ، حيث بقيتْ حتى أدركتْ قتْلَ ابن ابنها الوليد بن يزيد بن عبد الملك في سنة (١٢٦ هـ) .

* وتوفيت عاتكة في دمشقَ بعد سنة (١٣٢ هـ) ، ودفنت فيها في المحلة التي تنسب إليها فيقال : قبر عاتكة ؛ وهو مكان مشهور بدمشق الآن .

* وذكر صاحب كتاب « الهفوات النّادرة » خبراً يشير به إلى أنّ عاتكة عاشت إلى نهاية دولة بني أمية ، حيث إنّها رأت حلماً ، ولم يمضِ

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٦) .

(٢) انظر البداية والنهاية (٢٤١/٩) ، والدارس للنعيمي (٢٥٧/١) و (٢٠٤/٢) .

(٣) راجع الخبر كاملاً في كتاب « الهفوات النادرة » لأبي الحسن محمد بن هلال الصابي (ص ١٠٨) .

على حلمها شهر حتى قُضيَ على الخلافة الأموية بدمشق ، وكان ذلك في سنة (١٣٢ هـ) .

* رحم الله عاتكة بنت يزيد ، وأدخلها في رحمته مع مَنْ يشاء ، إنّه غفور رحيم .

* * *